



نشرة دورية تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

القبائل والسياسة

في شرفي شبه الجزيرة العربية

تأليف: ج. أ. بترسون
ترجمة: حسين علي اللبودي
مراجعة: د. محمود أبو العلا

يوليو - حزيران ١٩٧٩ م
رجب ١٣٩٩ هـ

٦



نشرة دورية تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

القبائل والسياسة

في شريط شبه الجزيرة العربية

تأليف: ج. أ. بترسون
ترجمة: حسين علي اللبودي
مراجعة: د. محمود أبو العلا

يونيو - حزيران ١٩٧٩ م
رجب ١٣٩٩ هـ

أسرة التحرير:

الدكتور عبد الله الغنيم	رئيس قسم الجغرافيا « مشرفاً »
الأستاذ إبراهيم الشطي	رئيس الجمعية الجغرافية الكويتية
الأستاذ الدكتور محمود طه أبو العلا	
الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبلي	
الدكتور طه محمد جاد	

المراسلات

الجمعية الجغرافية الكويتية — ص ب ١٧٠٥١ — الخالدية — الكويت

جميع الآراء الواردة في هذه النشرة تعبر عن
رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر .

تقديم

بقلم الدكتور محمود أبو العلا

لقد اهتم كاتب هذا المقال — مستر بترسون — بدراسة النواحي البشرية لشرقي شبه جزيرة العرب وبخاصة سلطنة عمان . وقد ظهر له كتاب عن السلطنة عام ١٩٧٨ . كما ديج مقالات أخرى عن هذا الجزء من شبه جزيرة العرب .

لقد اغرت دراسة القبائل كنظام اجتماعي غير معروف في دول الغرب كثيرا من الكتاب الانجليز والامريكان . وقد اسرفوا في تحليل بعض المظاهر القبلية وحملوها مالا تحمل ، كما ان جهلهم باللغة العربية اوقعهم في كثير من الاخطاء .

وقد كتب مستر بترسون بحثه هذا عن القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية بعد دراسة ميدانية اجراها عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ وتناول النظام القبلي وآثاره على الحياة السياسية والاجتماعية . ثم تتبع التحول الكبير في حياة السكان والدول في هذه المنطقة بعد اضمحلال النظام القبلي واخذ الحكام بأساليب الادارة الحديثة المتبعة في الدول المتقدمة . ويعزي هذا التحول ، في قدر كبير منه الى ظهور البترول واستثماره وضخامة انتاجه وكبر مردوده . فقد كان ظهوره بمثابة حدث هام في حياة سكان امارات ومشيخات الخليج العربي وسلطنة عمان .

كانت القبيلة اساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكان شيوخ القبائل هم الحكام . وكان الصراع فيما بينهم يشكل التاريخ السياسي لهذه الامارات والدول نظرا لضعف السلطة المركزية كما كان الحال في عمان .

لكن ظهور البترول كان العصا السحرية التي غيرت الى حد كبير انماط الحياة في شرقي شبه الجزيرة العربية فقد جاء في ركابه :

- اضمحلال النظام القبلي وازدياد سلطة الحكومات وقيامها بالخدمات على اختلاف انواعها فتعطل نفوذ شيوخ القبائل .
- التطور السياسي لدول شرقي شبه الجزيرة وقيامها بالمحاولات المتكررة لرسم الحدود السياسية فيما بينها — ولم تكن تعرفها فيما قبل دول شبه الجزيرة العربية — فقام الصراع بينها من اجل تخطيط هذه الحدود . وقد تم الاتفاق على رسم بعضها ولا تزال اجزاء كثيرة لم يتفق على رسم حدودها السياسية بعد .

— اتصال دول شرقي شبه الجزيرة بالعالم الخارجي مما ساعد على تحديث انماط الحياة ، كما ساعد على تحديث الادارات الحكومية ايضا .

زار مؤلف هذا البحث (J.E. Peterson) سلطنة عمان عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ولهذا تركزت الدراسة على سلطنة عمان دون غيرها من دول شرقي الجزيرة العربية .

في هذه الفترة — التي زار فيها المؤلف سلطنة عمان — كانت بداية النهضة وقد اخذت الدولة في رفع رداء العصور الوسطى الذي التزمت به في عهد السلاطين قبل عام ١٩٧٠ .

اما بعد الانتفاضة التي جاءت بالسلطان قابوس على عرش عمان اخذ السلطان الجديد في بناء التجهيزات الاساسية The Infra Structure مثل : الطرق والتعليم والصحة والماء والكهرباء واخذ السلطان قابوس ايضا في اعتماده التنمية الاقتصادية للموارد المتاحة مما جعل السلطنة تستنفذ كل دخلها من البترول بل ويستدين ايضا من الدول العربية الصديقة والمؤسسات الدولية .

وتحققت اهداف الحكومة بل احلامها في بعث عمان جديدة : الانسان والاند سكيب الحضاري معا جنبا الى جنب .

لقد اندفعت المدينتان التوام « مسقط وعمان » في النمو والتوسع العمراني فنشأت ما تسمى بمنطقة العاصمة على امتداد ٣٠ كم من مسقط جنوبا الى مدينة السيب شمالا واصبحت تضم مدنا جديدة وموانئ جديدة تجارية وبترولية ومطار جوي عالمي وزاد سكانها من ٢٤ر٠٠٠ نفس الى اكثر من ١٢٠ر٠٠٠ نفس بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٩ .

وشمل التوسع العمراني مدينة صلالة التي يربو اتساع العمران فيها حاليا على سبعة امثال مساحة المدينة القديمة . وبني بالقرب منها ميناء حديث . وارتبطت صلالة بجبال قرى بعدة طرق مبنية ليزداد تلاحم سكان السهل الساحلي او صلالة باهل الجبال سكان مرتفعات قرى فتذوب الفوارق بينهما اجتماعيا وحضاريا .

وكذلك امتدت التنمية الاجتماعية والاقتصادية سائر اجزاء سلطنة عمان بعمامة ، ومنطقة الباطنة والجبل الاخضر بخاصة .

ولكن التغير الذي طرا على حياة هؤلاء السكان بعد البترول لم يبعدهم عن قيمهم العربية الاصيلة وتقاليدهم الاسلامية المحيطة .

للدكتور محمود ابو بلعسل

القبائل والسياسة

في شرقي شبه الجزيرة العربية

خلال الفترة القصيرة الماضية والتي تقدر بقرن من الزمان — او نحوه — شهد شرقي الجزيرة العربية تطورا جديا في مجال السلطة السياسية ، وبخاصة ذلك الاقليم الذي يضم في الوقت الحالي : البحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان . ففي بداية هذه الفترة كانت القبيلة هي الوحدة السياسية الاساسية ، وحدة ذات طبيعة لا مركزية ، يسودها مفهوم المساواة . ونتيجة توافر عدد من العوامل ، اكثرها خارجي ، تحولت هذه البيئة على نحو مفاجيء ، وفي سرعة ، تتزايد يوما بعد آخر . ثم انتهى بها الامر الى الوضع الحالي ، الذي جاء نتيجة قيام عدد من الدول القومية ، او ما يمكن ان نطلق عليها توخيا للدقة في بعض الحالات « دوليات المدن » ، بممارسة سلطتها السياسية ممارسة كاملة . وعلى الرغم من ان هناك قدرا من الاختلاف في الرأي عن هم احق بالحكم في هذه الدول ، فليس هناك سوى قلة من الناس تنكر عليها مشروعيتها كدول ذات سيادة . كما يتضح لنا خلال هذه الفترة اعتماد هذه الدول على عدد من المؤسسات السياسية التي تم تشكيلها على غرار المؤسسات السياسية الغربية . وليس من شك في ان ظهور هذه التحولات السياسية قد كان مواكبا في ذات الوقت لانول سلطة القبائل ونفوذها .

ولقد كان من الضروري ان تتركز عملية التحول هذه حول امرين ، اولهما : دعم المؤسسات القيادية ، وثانيهما : اعطاء هذه المؤسسات الصفة الشكلية . فقد كانت قيادة القبيلة موكولة الى شيخها (والشيخ في الاصل لقب شرقي يطلق على مسؤول القبيلة على سبيل التكريم ، ويحمل بين ما يحمل من معان التكريم والاجلال : كبير القوم وحكيمهم) .

✻ نشر هذا البحث في مجلة : صحيفة الشرق الاوسط ، المجلد ٢١ ، صيف ١٩٧٧ ، العدد ٢

وقد أصبح هذا الشيخ ، فيما بعد ، قائدا منتخبا وفقا لمفهوم « الاول بين انداد » (١). وبمرور السنوات، اكتسب نفر من شيوخ شرقي شبه الجزيرة العربية مزيدا من السلطة والمهابة نتيجة لاعتراف البريطانيين بهم شيوخا متهادنين (Trucial Shykh) وأخيرا اتخذ هؤلاء الشيوخ من لفظ « الحاكم » لقباً لهم ، ثم اتخذوا بعد ذلك لفظ « الأمير » في عهد الاستقلال، ولفظ الأمير يجمع بين صفات الحاكم والقائد الى جانب المفهوم التقليدي له ، اي سليل الاسرة الحاكمة . وعلى أية حال فلم يفد من هذه العلاقة المهادنة سوى فئة محدودة من زعماء القبائل . أما الكثيرون منهم فقد وجدوا ان سلطتهم أخذت في الزوال نتيجة لهذا الاعتراف باقرانهم ، كما انهم قد يشهدون عما قريب اختفاء ما لهم من وضع قيادي مستقل اختفاء كاملا .

ويأتي على نفس القدر من الاهمية مع ما سبق — في ما يختص بعملية التحول السياسي في شرقي شبه الجزيرة العربية — تلك الازدواجية بين « البدو » و « الحضر » والغلبة التدريجية للعنصر الاخير . ويعني المصطلح « بدو » كل ما يتبادر الى الذهن من معان تتصل ببدا الصحراء سواء اكانوا رعاة مترحلين أم زراعا مقيمين ، في حين يصدق المصطلح « حضر » على أي اقليم متحضر أو أي تجمعات سكانية مستقرة أو سكان المدينة . وعبر تاريخ هذه المنطقة هنالك من الشواهد ما يؤكد بأن العلاقة بين سكان البادية وسكان الحضر لم تكن بالعلاقة السوية ، فهي علاقة يسودها احساس بالحاجة المتبادلة ، كما يسودها في نفس الوقت احساس متبادل بانعدام الثقة . فعلى الرغم من اعتماد كل طرف على الآخر ، نجد أن كلا الطرفين يؤكد مزاعم التميز والتفوق على الآخر . وقد تركزت ثقافة الحضر ، في منطقة شرقي شبه الجزيرة — في عمان — في حين مالت اصول المجتمع الخليجي وتقاليده الى أن تكون امتدادا لثقافة

١ — بالنسبة للمجتمع القبلي في شبه الجزيرة العربية ، كتب كاسكل ورنر : « لا يوجد في هذا الكيان القبلي زعيم رسمي ، ناهيك عما في قيادته من ندر جهمي . لكن القائد القبلي يستطيع أن يكتسب صفة رسمية من أي طابع في حالة ما إذا تم تعيينه في منصبه أو تم تنصيبه فيه من قبل سلطة غير بدوية . أما عن غير هذا الطريق فيعتبر قائدا قبليا يتم انتخابه أو اختياره من بين من هم في مكانته ، أي « الاول بين انداده » . وعادة ما يتولى القائد القبلي امرة القبيلة عن طريق الورثة ، وان كان يصل اليها في بعض الاحيان بجهود الشخصية » عن مجلة American Anthropologist ، ٥٦ / أبريل ١٩٥٤ ، من مقال للكتاب بعنوان : Bedouinization of Arabia

البدو . وربما كان في التطور التاريخي لكلتا المنطقتين ما يؤكد هذا الفرق الجوهرى بينهما . ذلك ان دول الخليج لم تزدهر ككيانات سياسية مستقلة الا منذ عهد حديث نسبيا ، بينما يعتبر الاعتراف بسلطة مركزية شرعية — في عمان — تقليدا راسخا منذ امد بعيد . وفي حين تنبع الثقافة الخليجية من الصحراء ، الى حد كبير ، نجد ان الثقافة العمانية قد نمت عبر تاريخ طويل لحياة زراعية متصلة سابقة على وفود القبائل العربية اليها * . ثم اكتملت هذه الثقافة عن طريق انتشار المذهب الاباضي العريق ، فقد اتخذت فرقة الاباضية من البلاد ملاذا حصينا ضد ما تلاحق عليها من غارات من جانب الفزاة المسلمين والاوروبيين على السواء .

وعلى الرغم من هذا التمييز النظري بين الثقافة الخليجية والثقافة العمانية فان القبيلة قد اخذت مكانها في كلتا المنطقتين كسلطة سياسية اساسية . وتتفاوت درجة التماسك داخل القبيلة تفاوتا شاسعا من قبيلة لآخرى . ففي جانب من جانبي الصورة القبلية نلاحظ ان هناك قبائل محكمة التماسك وهي تحت امرة تهيمه قوى الشخصية ، يمارس سلطته السياسية على كل اقسام القبيلة . وعلى الجانب الاخر نلاحظ ان قبيلة ما لا تشكل بالفعل سوى تحالف ممزق الاوصال ، لكل سلطته الادارية الخاصة به . وعلى الرغم من ان القبيلة اما ان تكون مقيمة « حضرية » او مترحلة « بدوية » فان القبائل الحضرية اكثر ميلا الى الالتفاف حول ادارة مركزية قوية ، بينما تنقسم القبائل البدوية ، بوجه عام ، الى وحدات عائلية مستقلة . ومع هذا ، فان وجود عدد من القبائل يحوي كلتا الفئتين — المقيمة والمترحلة — الامر يعقد هذه الملاحظة .

كما يتساوى في الاهمية مع ما سبق ان ندرك بان السياسات القبلية تحكمها حالة من التغير . بمعنى ان تكون قبائل جديدة ليس بالامر المستغرب ، ولنا في قبيلة البلوشي مثل على هذا . فهذه القبيلة ، المكونة من سلالة بلوشية ، تنتمي في الاصل لبلوشستان المتاخمة للساحل الايراني الباكستاني ، قد هاجر افرادها الى منطقة الظاهرة العمانية حيث اتابوا

* اظن انه لا يمكن الفصل بين الثقافة العمانية وبين القبائل العربية المقيمة فيها منذ اقدم العصور وهم الذين اضفوا عليها طابعهم الثقافي ، وان كان سهل الباطنة قد تأثر لفترات قصيرة بالفزو الفارسي وما نتج عنه من مؤثرات . (المراجع)

وكونوا وحدة قبلية مماثلة لجاراتها العربيات . ولنا مثل اخر في قبيلة
بوشامس التي تقيم في اقليم البوريمي ، فهي لم تنفصل عن القبيلة الام
« نعيم » الا منذ عهد قريب . اما العكس من هذا ، واعني ما يحل من
تفكك لقبيلة ما كانت موجودة من قبل ، فليس ايضا بالامر المجهول ، كما
هو الحال بالنسبة لقبيلة بني ريام التي تسكن الاقليم الجبلي لعمان .
فعلى اثر مُرار تميمتها في عام ١٩٥٩ — بعد أن أخفق التمرد الذي قام به
ضد السلطان — فقدت بني ريام وضعها كواحدة من أقوى القبائل العمانية
وانهارت تلك الزعامة التقليدية التي كانت تمسك بزمامها عشيرة **النباهنة**،
مفسحة بهذا المجال امام تفكك القبيلة وانقسامها الى اثني عشر فرعا
مستقلا او اكثر .

وقديحدث التغير ، ايضا ، داخل قبيلة ما ، . فرب قبيلة قليلة العدد
او ضعيفة نسبيا او غير قادرة على فرض سلطتها على اعضائها استطاعت
تحت زعامة شيخ قوي أن تلم شعبتها وتقوي من تنظيمها الداخلي وتبسط
نفوذها على كل أرجاء ديرتها ، وربما وسعت من مساحتها . اما الوجه
الاخر من العملة فيتمثل في ما قد يلحق بالوضع الكائن لاحدى القبائل من
ضرر وهي تحت امرة شيخ ضعيف . فالى جانب ما يتمخض عنه ضعفه
من تقلص لمكانته بين عشائر القبيلة وربما تقلص حجم ديرته على يد احدى
القبائل المجاورة ، فان هذا الشيخ يواجه امكانية الاقتضاء من جانب احد
اقربائه الاقوياء ويحل محله في زعامة القبيلة ، والا فان البديل لهذا هو
ان تقوم احدى العشائر المنافسة لعشيرته بانتزاع اعنة القيادة القبلية .

ومع ان اهم مؤثر طبعته السياسة القبلية على دول المنطقة الحديثة
قد تمثل في تطور الاسر الحاكمة من خلال القادة القبليين ، فهناك بالمثل
مؤثرات قبلية اخرى لها وزنها . ذلك ان هنالك عددا من المفاهيم الاساسية
المجسدة لحكومات شرقي شبه الجزيرة — قد قام على اساس من العرف
القبلي . ومن هذه المفاهيم مفهوم **المجلس** ، وهو عبارة عن اجتماع دوري
عام يؤهل الفرد العادي للوصول الى مجلس الحكم ، ويمنحه فرصة لرفع
مظلمته ورد اعتباره له في الحال . وهنالك مفهوم آخر هو مفهوم **الشورى**،
ويقصد بها عملية التشاور والتدارس التي تتم بين اعيان القبائل او وجهاء
المجتمع . وقد تجسدت هذه الفكرة (المفهوم) بصورة رسمية في معظم
حكومات المنطقة من خلال المجالس التشريعية او الاستشارية . وقد
اسهم تجسد هذه المفاهيم في حكومات دول المنطقة باستمرارية وجودها
في غمرة هذا التحول السريع .

● تطور النظم القبلية في الخليج :

لكي نتتبع النمو السياسي لدول الخليج ، يحسن بنا ان نقسم هذه الفترة الى ثلاثة اطوار ، هي على وجه التقريب :

١ — ظهور عدد من القبائل القوية مع ما صاحب ظهورها من اقامة لعدد من المستوطنات ، نواة المدن الحالية ، على طول الساحل .

٢ — تزايد سلطات الحكم الفردي على يد عدد من شيوخ هذه القبائل .

٣ — الظهور الفعلي لدول مرسمة الحدود في اطار دستوري .

وقد تحققت الخطوة الاولى ، تركز السلطة واقامة المستوطنات — على يد تلك القبائل الاكثر تماسكا ، واطهارا للقوة ، وتطبيقا لمركزية القيادة واستعدادا للانتقال من وجود مترحل او شبه مترحل الى بيئة اكثر امنا واستقرارا . وقد كان لتنقلات القبائل اسباب متعددة ، لكن الدوافع الكامنة وراء هذه التنقلات ، وكذا عملية الانتقال ذاتها فأمور ينبغي ان تستوفى دراستها . وعلى اية حال ، فربما كان للتغيرات التي طرأت على وسائل الكسب دور اساسي في هذه العملية ، كان تتحول القبيلة من التركيز على الرعي وزراعة التمر الى الصيد والغوص على اللؤلؤ والاشتغال بالتجارة التي تزايدت فرص العمل بها اخيرا . كما كانت تنقلات القبائل ، الى حد ما ، انعكاسا لنمط قديم يتمثل في تلك الهجرات القبلية داخل شبه الجزيرة ، فقد كانت القبائل مضطرة الى السعي وراء الامن والاستقلال في مواقع جديدة نتيجة لما كانت تمارسه عليها قبائل اخرى من ضغوط (٢) .

وقد كانت اقامة مراكز الاستقرار الساحلية في المنامة و الدوحة و ابو ظبي و دبي وغيرها بمثابة نقلة لها مغزاها لعدد من الاسباب تتجاوز

٢ — من هذه الهجرات تلك التي قام بها آل خليفة ، الذين تنقلوا من الكويت الى شبه جزيرة قطر ثم استقر بهم المقام في البحرين ، خلال القرن الثامن عشر . انظر : تاريخ شرقي شبه الجزيرة العربية (١٧٥٠ — ١٨٠٠) تأليف : د. أحمد مصطفى ابو حلكمة ، مكتبة خياط — بيروت ١٩٦٥ .

مجرد ذلك الاستيطان الطبيعي البسيط . ذلك ان اختيار مركز جغرافي دائم قد أسفر عن نوع من التكيف بين القبيلة ومستوطناتها . زد على ذلك ، فان هذا الانتقال البسيط من ثقافة بدوية الى ثقافة حضرية تطلب بالمقابل مزيدا من الاعتماد على سلطة سياسية اقوى . في هذا الوسط ، كانت النتيجة النهائية تقوية المفهوم الخاص بالاحتفاء بمبايعة القائد القبلي — وتعني مبايعة القائد : اظهار الخضوع والولاء له والاعتراف به سيدا على القبيلة . كانت هذه ، اذن ، خطوة مبكرة في عملية تحول القيادة من صورة شيخ قبلي الى صورة نصير يزود عن كيان محدد المعالم ثم الى حاكم ثم الى أمير . وفي نفس الوقت ، تحولت العشائر المشيخة لتلك القبائل المهيمنة على تلك المستوطنات النواة — الى عائلات اريستوقراطية غدت فيما بعد العائلات الحاكمة في كل اماره من تلك الامارات (٣) .

وفي نفس الوقت ، باشر الشيوخ المهيمنون الاضطلاع بمسؤوليتهم المتزايدة يوما بعد اخر ، حيال كل اعضاء القبيلة ولو ان بعض رجالها كانوا منفصلين عنها انفصالا طبيعيا .. بالاضافة الى هذا فقد سعي هؤلاء الشيوخ الى كسب تأييد القبائل لمرکزهم عن طريق تدعيم التحالفات القبلية الموجودة ودمجها في اتحادات دائمة ، وهو النهج الذي برع في السير عليه شيوخ أبو ظبي (٤) . وأخيرا فان الانتقال الى المستوطنات الساحلية قد فتح الطريق لاتصال اكبر بالعالم الخارجي ، وربما كان لهذا الاتصال اثر في تشجيع تبادل الافكار مع العالم الخارجي واضعاف التمسك

٣ — نطرق بيتر لينهارث للردور الرئيسي الذي لعبته هذه الاسر في مقال له بعنوان : سلطة شيوخ الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر ، نشر في مجلة Arabian Studies ، المجلد الثاني ، ١٩٧٥ : ص ٦٣ — ٦٤ .

٤ — ينسب هؤلاء الشيوخ الى آل بو فلاح — وهي احد فروع قبيلة بني ياس . وقد كان أبو فلاح يعيشون بصفة أساسية في واحة اللواء (الجبوة) الواقعة في جنوب شرق مدينة أبو ظبي . وفي هذه الواحة كان بنو ياس والناصر يتقاسمان العيش في سلام — منذ امد بعيد — في المستوطنات القائمة في هذه الواحة . وبفعل الروابط الوثيقة التي اقامها بنو فلاح مع الظواهر ، قوي نفوذ شيوخ أبو ظبي في هذه المنطقة . ثم ازداد نفوذهم قوة بعد التأييد الذي تلقوه من قبيلة العوامر واسمة الانتشار . انظر البحث الذي كتبه ج. ب. كيلى ، حول القبائل والسياسة والدين في عمان وعمان المتهاجرة ، وهو البحث الذي ضمنه درك هوبود كتابه : Arabian Peninsula : Society and Politics (شبه الجزيرة العربية : المجتمع والسياسة) ، لندن : جورج ألن واتونين ، ١٩٧٢ ص ١٢٧ — ١٤١ .

بالتقاليد والعادات الموروثة . ولا بد من الإشارة الى أن هناك عدة استثناءات لها أهميتها بالنسبة لهذا الرأي الذي سقناه على نحو تعميمي على تطور المستوطنات الساحلية . واول هذه الاستثناءات هو ذلك التقليد البحري الذي كان متبعاً في موانئ الساحل كميناء رأس الخيمة (جلفار سابقاً) وميناء خور فكان — (هنالك من الآراء ما يرجع بأن الملاح العربي ابن ماجد الذي كان مرشداً لفاسكودي جاما في رحلاته عبر المحيط الهندي — كان من مواطني رأس الخيمة (٥)) . وثانيها هو تلك المستوطنات الزراعية الواقعة في شمالي جزيرة البحرين التي يسكنها البحارنة (٦) . ومع هذا فقد تلاشت الفوارق بين تلك التقاليد التي كانت تتبع من قبل قلة من السكان وبين أنماط الاستقرار الحديثة التي كانت تمارسها كثرة من السكان ، والمذكورة فيما سبق . وقد جاء تلاشي هذه الفوارق نتيجة قدوم الأوروبيين ورد الفعل العربي الذي تخض عنه هذا التطور .

أما المرحلة الثانية — تركيز السلطة في أيدي فئة من الشيوخ — فنترجع في قدر كبير منها الى ما مارسه البريطانيون من نشاط في الخليج خلال المائة والخمسين عاماً الأخيرة . فقد ظهرت السيادة البريطانية على الساحل الجنوبي لشرقي شبه الجزيرة العربية ، لأول مرة ، في بداية القرن التاسع عشر ، أبان أن فرضت القيود البحرية على السكان العرب بحجة القضاء على القرصنة البحرية (كما تصورها البريطانيون) ، وعلى تجارة الرقيق . وقد وصل فرض هذه القيود في نهاية الامر — الى حد حظرت معه الحرب البحرية على العرب ، وهو الحظر الذي تم التصديق عليه في معاهدة السلم البحري الدائم عام ١٨٥٣ . وقد جاءت شبكة الاتفاقيات المهادنة التي دبرتها هذه المعاهدة نتيجة لاقتناع البريطانيين بأن الشيوخ المتزعمين لهذه المستوطنات (الشيوخ المتهادنون) كانوا بالفعل يمارسون سلطتهم السياسية على كل المقيمين فيها . وبعبارة أخرى ، كان وضع هؤلاء الشيوخ بالنسبة للبريطانيين اقرب الى وضع

٥ — انظر مادة شهاب الدين احمد بن ماجد ، دائرة المعارف الاسلامية ، ط ١ المجلد الرابع ، ص ٣٦٢ : ٣٦٨ .

٦ — البحارنة الاسم الذي يطلق على سكان البحرين الاصليين ، وهم خليط من العرب والفرس ، وينبع البحارنة المذهب الشيعي ، في حين يتبع معظم عرب الخليج المذهب السني .

الحاكم منه الى وضع شيخ القبيلة (٧) . ومع ان هؤلاء الشيوخ قد حققوا بهذه الاتفاقيات شيئا من الاعتراف بما لهم من سلطة سياسية (من قبل البريطانيين) ، فلم تحقق لهم هذه العلاقة المهادنة أية فائدة فيما يتعلق بوضعهم الداخلي ، حتى بعد مضي وقت طويل عليها . لذا فقد ظل مركز كل شيخ من هؤلاء الشيوخ ، بالنسبة للسكان الاصليين ، معتمدا على ما يظهره من براعة في كسب تأييد القبائل له .

أما المرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي نمت خلالها دول مرسومة الحدود ، فقد بدأت مع اهتمام البريطانيين بالساحل العربي وتورطهم في شؤونه على نحو متلاحق . فقد عد الشيوخ المتهادنون — من قبيل البريطانيين — مسؤولين عن جميع المجتمعات القبلية الواقعة في حوزتهم، مما ساعد على تحولهم من مجرد شيوخ منتخبين وفقا لمفهوم « الاول بين انداد » الى حكام يحكمون حكما مطلقا . كما أن وضع هذه المستوطنات تحت الحماية البريطانية في التسعينات الاولى من القرن الماضي لم يخلع على الموقف البريطاني حيال الشيوخ المتهادنين صفة الرسمية وحسب ، بل خلع على مفهوم المشيخة بالمثل وضعا قانونيا ، فقد تضمن مفهوم المشيخة خلال هذه المرحلة وجود جنين لكيان محدد المعالم يرتكز جغرافيا على المستوطنة النواة شريطة أن تؤول السلطة السياسية فيه الى شيخ يحكمه حكما مطلقا ويضطلع فيه بقدر من المسؤولية حيال ديرات التجمعات القبلية التي تدين له بالولاء . ولعل مفهوم السيادة على منطقة محددة المعالم والمتضمن على النحو المذكور ، قد عزز بدوره اعضاء الشرعية على الشيوخ المتهادنين وعلى عائلاتهم . ومع هذا ، وعلى الرغم من ظهور المشيخة ، فان الاتفاق الذي بمقتضاه تحولت هذه المستوطنات الى مشيخات ، وبخاصة على الساحل المتھادن ، لم يتحقق الا منذ عهد قريب نسبيا . فلم يعترف بمدينة **كلبا** كمشيخة مهادنة الا خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٥١ . كما لم يعترف بمدينة **رأس الخيمة والفجيرة** — وهما عضوان ضمن سبعة أعضاء في دولة الامارات العربية المتحدة — الا في عامي ١٩٢١ و ١٩٥٢ على التوالي .

٧ — كان مركز الشيوخ الموحدين — الوهابيين — في وسط شبه الجزيرة العربية ، ايضا ، اقرب الى مركز الحاكم منه الى مركز شيخ القبيلة . انظر لينهاردت في كتابه : *The Authority of Shyhs in the Gulf* (سلطة الشيوخ في الخليج) ، ص ٧٠ .

واخيرا فان الدافع لاعتبار هذه المشيخات دولا كاملة التكون ، قد جاء نتيجة التنقيب عن النفط وما ترتب عليه من حاجة ملحة الى ترسيم الحدود . فقد كانت مشيختا البحرين وقطر اول من منح امتيازات التنقيب في اوائل الثلاثينات من هذا القرن ، ثم بعد ذلك بوقت قصير ثم تأمين اتفاقيات التنقيب لمختلف مشيخات الساحل المتھادن . لكن التفاوض بشأن عقد هذه الاتفاقيات بين مختلف شركات التنقيب وبين المشيخات ، وما يترتب عليها من عقود ، كان يجري تحت رأي من عين الحكومة البريطانية اليقظة . كما ان منح هذه الامتيازات من قبل الشيوخ المتھادين كان يتم وفقا لاعتراف كلا الطرفين بسلطة هؤلاء الشيوخ ، كمجموعة ، على جميع الاراضي الواقعة بين ساحل الخليج والحدود المتاخمة لسلطنة مسقط عمان ، علما بان حدود كل مشيخة على حدة لم تكن محددة بعد . وليس هنالك من شك في انه لولا تحسب وجود النفط في الاقاليم غير المرسمة الحدود ، وما تطلبه من ترسيم لها ، لظل الغموض الذي كان يكتنف مشاكل الحدود باقيا الى يومنا هذا .

ولعل ابرز مثل على ما واجه هذه المشكلة الشائكة من عقبات يتمثل في ذلك النزاع الطويل الذي احتدم بين السعودية والبريطانيين — باعتبارهم ممثلين عن المشيخات — حول الحدود السعودية مع كل من قطر وابو ظبي (٨) .

-
- ٨ — يرجع تاريخ هذا النزاع الى بداية هذا القرن عندما كانت شبه الجزيرة العربية خاضعة للسلطان العثماني . وكان الخط الازرق ، عام ١٩١٢ ، هو اول محاولة لرسم حدود بين مشيخات الخليج واقليم نجد العثماني في هذا الوقت . وفي عام ١٩٢٥ اقترحت السعودية خطا اخر سمي بالخط الاحمر ، لكن الانجليز اعترضوا على هذا التقسيم ، وقدموا مقترحات اخرى في نفس المام تمثلت في الخط الاخضر ثم خط الرياض ، اللذين لم تقبل بهما السعودية . لمزيد من التفاصيل انظر المفكرات المتبادلة بين السعودية والمملكة المتحدة بشأن التحكيم حول نسوية هذه النزاعات:
- ١ — بريطانيا العظمى : التحكيم الخاص بالبوريمي والحدود المشتركة بين ابو ظبي والعربية السعودية ، مذكرة مقدمة من حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا (مجلدان ، لندن ، دار نشر HMSO ، ١٩٧٥) .
- ٢ — العربية السعودية : التحكيم الخاص بنسوية نزاع الحدود بين مسقط وابو ظبي من جانب والعربية السعودية من جانب آخر ، مذكرة مقدمة من حكومة العربية السعودية (٣ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٥) .

وقد أسفرت التوقعات المتزايدة بوجود النفط في شمالي صحراء **الربع الخالي** ، في الخمسينات من هذا القرن — الى جانب عوامل أخرى — عن احتلال السعودية لجزء من واحة البوريمي الامر الذي عجل بظهور ما عرف « **بازمة البوريمي** » التي دخلت السعودية بسببها في صدام مع كل من ابو ظبي وسلطنة مسقط وعمان . واتسع نطاق هذا الصدام ليشمل بريطانيين وأمريكيين . وقد تم اخراج القوات السعودية من الواحة في عام ١٩٥٥ أي في أعقاب انهيار الاجتماع التحكيمي الذي عقد في جنيف في اواخر العام المذكور . ومع أن اخراج السعوديين من الواحة هو الذي أوجد حلاً للمشكلة على أساس الامر الواقع ، فإن الاتفاق الرسمي الذي تم التوصل اليه بشأن الحدود مع قطر لم يتحقق الا في عام ١٩٦٥ ، كما لم يتم التوصل الى اتفاق مماثل مع ابو ظبي الا في عام ١٩٧٤ . ومع هذا ، فقد كان على السعودية وعمان أن تتوصلا الى اتفاق على حدود رسمية بينهما . والواقع ان مهمة رسم حدود للبلدين وسط مناهة من الجيوب الجبلية الواقعة على الساحل المتهدان تعد في حد ذاتها أمراً مضنيا للغاية . وعلى الرغم من أن ادعاءات السيادة على المناطق المتنازع عليها قد سويت على يد المندوب البريطاني — جوليان وكر — فلا تزال هناك ادعاءات أخرى لم تعرف بعد* الطريق الى التسوية (٩) .

وعلى الرغم من معضلة الحدود هذه ، فقد مضت شركات النفط قدما في أعمال التنقيب التي أسفرت في آخر الامر عن تدفق النفط في معظم المشيخات . ومن هذا المنهل الجديد تدفقت الثروة على المحظوظين من حكام تلك المشيخات الميمونة ، فاتخذوا منها وسيلة فعالة لتعزيز أوضاعهم الداخلية ، كما ساعدتهم على بسط نفوذهم واعلاء شأنهم بين القبائل على حساب حكام المشيخات غير المنتجة للنفط . وحتى قبل أن يظهر مردود الصادرات النفطية ، فقد كان فيما يتلقاه هؤلاء الشيوخ من أموال الامتيازات النفطية المتواضعة ما مكنهم من استخدام أسلوب الهبات التقليدية في تعزيز مركزهم ونفوذهم بين القبائل . ومع بدء المدفوعات على صادرات النفط ، شرع هؤلاء الحكام في تبني برامج التنمية الاجتماعية الاقتصادية الطموحة. فلأول مرة تدخل المشيخة الخدمات العامة الاساسية

٩ — من هذه النزاعات ما حدث بين الشارقة ودبي في أواخر صيف ١٩٧٦ ، عندما أعلنت الشارقة عن عزمها اقامة مجمع تجاري يحمل اسم : مركز شارل ديغول التجاري — على قطعة أرض كانت دبي تدعي ملكيتها مع الشارقة .



كشك الطرق وتعييدها ، والاسكان ، والتربية والتعليم والرعاية الصحية، مما اكسبهم احترام الناس واطاف الى المهام التي تضطلع بها المؤسسة الحاكمة مهام اخرى . لقد كانت هذه الثروة الجديدة بمثابة وسيلة لتوسيع نطاق الحكومة البدائية التي كانت قائمة على مستوى شخصي لتصبح فيما بعد مؤسسة اكثر تعقيدا . فقد انشئت الدوائر الحكومية العاملة ، وشيدت الابنية ، واتسع نطاق الخدمات العامة ، واستقدم الخبراء من خارج البلاد لتوجيه القوى المحلية وتدريبها كي تتمكن بعد فترة من ادارة خدماتها بنفسها .

ونتيجة للانفاداة من الفرص المتاحة لحدوث التحول ، حصلت دول الخليج الجنوبية على استقلالها الكامل عام ١٩٧١ دون ان تعاني مما خشيه البعض من تفكك او قلاقل عقب اعلان بريطانيا الانسحاب منها في عام ١٩٦٨ وظهرت كل من قطر والبحرين كعضوين كاملين في جامعة الدول العربية وهيئة الامم المتحدة مع شىء من التعديلات الاساسية اضطلعوا بمقتضاها بمسؤولية كاملة عن الدفاع والشؤون الخارجية . وعلى كل ، فان حكام الساحل المتهاذن قد بدلوا بالقيود البريطانية على سيادتهم قيودا جماعية تمثلت في قيام اتحاد دولة الامارات العربية المتحدة (١٠) . وبصرف النظر عن حداثة ظهور دولة الامارات العربية المتحدة في شرقي شبه الجزيرة العربية كتجربة في تقاسم السلطة ، فقد لوحظ ان اجراء التعديلات الادارية الضرورية على اساس الاوضاع النسبية لحكام مختلف الشيوخ كان نتيجة لظهور النفط : فبينما كانت تتمتع اسرة القواسم (التي تقيم في شمالي المستوطنات) بالسلطة والنفوذ في وقت من الاوقات لكونها اقدم اسرة حاكمة على الساحل المتهاذن ، نجد ان التعديلات الوزارية التي جرت في عام ١٩٧١ قد كانت في صالح اسرة ال نهيان حاكمة ابو ظبي واسرة ال مكتوم حاكمة دبي ، اللتان اختصتا بموجب هذه التعديلات بمنصبي رئيس الدولة ونائبيها بالاضافة الى معظم المناصب الرئيسية في الاتحاد الجديد . كما يعتبر قيام هذا الاتحاد مهما من حيث انه قد لفت الانتظار الى ان الحكام الافراد والدول

١. - لمزيد من التفاصيل حول ما طرا على هذه الدول من تطور خلال السنة الاولى لاستقلالها ، انظر : *The Arab States of the Lower Gulf : People, Politics, Petroleum* (دول الخليج العربية : الناس ، السياسة ، والنفط) تأليف : جون ديوك انتوني ، واشنطن ، معهد دراسات الشرق الاوسط ، ١٩٧٥ .

الضعيفة لا تقوى على مواصلة السير في دروب مستقلة ، بل هي في حاجة للتعاون من خلال كيان سياسي أكثر رحابة ، وهو الامر الذي تمثل في قيام دولة الامارات العربية المتحدة . (١١)

● النظام القبلي التقليدي للداخل العماني :

بعد ان تناولنا التطور السياسي لدول الخليج ، يبقى لزاما علينا ان نتتبع التطور السياسي لعمان على طول خطوط مختلفة اختلافا جوهريا . فالتجربة العمانية السياسية قد تشكلت عن طريق عاملين اولهما : الدور الذي قامت به الاباضية في خلق مجتمع عماني متميز ، وثانيهما الطبيعية الازدواجية للتحالفين القبليين : الهيناوي والغافري . وعلى الرغم من ظهور الاباضية — وهي احد الفروع المعتدلة في مذهب الخوارج — في مدينة البصرة فان العمانيين قد تشيعوا لها وظاهروها وهي لا تزال في بداية عهدها . وقد قامت اول دولة اباضية في عمان ، بزعامة امام اباضي ، خلال القرن الثامن الميلادي . وبذا لم يكتسب الداخل العماني هوية مجتمعية ودينية متميزة وحسب ، بل تزود بمؤسسة سياسية مركزية ذات طابع اداري خاص . وقد كان الامام هو محور هذا النظام السياسي الديني ، وقد كان يجري اختيار الامام على غرار ما يتبع في تقلد شيخ القبيلة منصبه ، مع الاخذ بمفهوم « (الاول بين أنداد) » . وقد اسفر الاخذ بنظام الامامة عن تقليد ديموقراطي — وقد كان هذا التقليد اقرب مايكون الى الديموقراطية الفوضوية — تمتعت معه كل قبيلة على حده بقدر من الاستقلال الذاتي وحرية الحركة .

١١ — بقيت مشيخة القاسمي في راس الخيبة بمعزل عن الانضمام للدولة الجديدة ، في بداية عهدها ، على أمل ان يتدفق فيها النفط . لكن هذه الوقفة الاستقلالية لم تدم سوى ثلاثة اشهر عندما لم يسفر التنقيب عن وجود للنفط . ثم اضطرت الى الانضمام الى دولة الاتحاد دون ان تحصل على شيء مما اشترطته من قبل كي تنضم الى الاتحاد . لزيد من الاطلاع ، انظر The Union of Arab Amirates (اتحاد الامارات العربية) بقلم : جون ديوك انتوني ، مجلة Middle East Journal ٢٦ رقم ٢ ، ص ٥ : ٢٧١ — ٢٨٧ .

ونتيجة لهذا النظام الديني السياسي الطارد (Centrifugal) أن
تميز تاريخ عمان — خلال العهد الاسلامي — بسلسلة من الحلقات التاريخية
التالية :

● توخَّذ القبائل تحت إمرة امام قوي .

● بعد وفاته ، يتولى الحكم عدد من الائمة العلمانيين فيمتد النفوذ
العُماني على ايديهم الى ماوراء البحار ، الى شرقي افريقية بصفة
اساسية .

● انهيار سلالة اؤلئك الائمة نتيجة لنشوب الحروب الاهلية بينهم
بسبب الصراع على منصب الامام .

● في آخر الامر تبدأ حلقة جديدة بانتخاب شخصية قوية التدين اماما
للبلاذ .

وقد تغير هذا النظام في اخر الامر نتيجة تغلغل النفوذ البريطاني
وتزايدده في عمان .

وقد سارت على هذا النظام اسرة آل بو سعيد — التي حكمت عمان
في منتصف القرن التاسع عشر عندما انشغلت عن السياسة القبلية الداخلية
باقامة امبراطورية بحرية عمانية . وبعد وفاة سعيد بن سلطان — وقد
كان اقوى حكام هذه الاسرة — فقد آل بو سعيد ، تدريجيا ، سلطتهم على
جميع الاراضي العمانية اللهم الا شريطا ساحليا ضيقا ، وذهبت كل مطالبهم
بالزعامة الشرعية ادراج الرياح بزوال منصب الامام في عام ١٧٨٤ م . وفي
اوائل القرن العشرين برزت فكرة اقتسام السلطة بايعاز من البريطانيين
الذين ايدوا حق سلاطنة آل بو سعيد في السيطرة على الساحل ، مع وجود
امامة قبلية في الداخل لتصرف شؤون الداخل العماني . وقد تم تحديد هذه
الامور عام ١٩٢٠ في الاتفاق المعروف « باتفاق السيب » ، وهو الاتفاق الذي
تفاوض بشأنه المندوب السامي البريطاني مع الاطراف المعنية بالصراع ووقع
عليه ممثلو السلطان وعدد من وجهاء القبائل المهمة . وبمقتضى هذا الاتفاق
اعترف السلطان بالادارة الذاتية الموجودة من الداخل . وبذا ترك الداخل
العُماني لنظام توازن القوى تحت اشراف مخلص من قبل الامام الاباضي .

وقد كان هذا التوازن قائما على اساس ازدواجية الانتماء القبلي لاي من تحالفي الهناوي - الغافري . وعلى الرغم من ان هذه الازدواجية قد قامت اساسا على خطى عرب الجنوب/عرب الشمال وعلى التمييز بين اتباع المذهب الاباضي والمذهب السني ، فان التحالفات الهناوية الغافرية قد نشأت اساسا عن التحالفات القبلية - ابان الحروب الاهلية التي نشبت في اوائل القرن الثامن عشر - والتي اسفرت عن انتماء كل القبائل لاي من هذين التحالفين : الهناوي والغافري . وقد قامت هذه الانتماءات بوجه عام على انه لو كان سكان علانية الوادي او المدينة غافريا ، كان سكان سفالة هذا الوادي او هذه المدينة هناويا . وبصورة عامة ، كانت القبائل ذات الخصومات التقليدية تختار التحالف الذي لا تنضم اليه القبيلة الخصم . ونظرا لان الانتماء لاي من هذين التحالفين لم يكن امرا مطلقا ، فقد كان في مقدور اي قبيلة ان تنسحب من احدهما لتنضم الى الاخر ، الامر الذي حدث بالفعل . ونتيجة للوضع الكائن في هذه التحالفات ، فان الموقف تطلب ظهور شخصية قوية مؤثرة تؤمن لنفسها تأييد القبائل من كلا التحالفين لكي تمسك بأعنة القيادة في الداخل العماني . بالاضافة الى هذا ، فان الوسيلة الوحيدة الى توطيد اركان التعاون بين هذين التحالفين تتمثل في اثارة النخوة الدينية : اي ان رمز الامامة وحده هو القادر على ان يوحد غالبية القبائل العمانية .

وقد ظلت هذه الظروف سائدة في الداخل طيلة الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٥٤ : استمرار الداخل العماني كوحدة سياسية متباعدة نسبيا تتعايش في سلام مع السلطنة الساحلية تحت قيادة سلطة ثلاثية قوامها الامام وتحالفا الغافريين والهناويين . لكن في عام ١٩٥٤ تفجرت سلسلة من الاحداث اجهزت على نظام الامامة ، منها وفاة الامام القديم ، وما تلاها من تحالف بين الامام الجديد وشقيقه الطموح وزعيم التحالف الغافري الذي كان طموحا بالمثل بالاضافة للمساعدة السعودية المستقرة لهؤلاء الرجال ضد السلطنة . وبحلول عام ١٩٥٩ خضعت عمان برمتها لسيطرة السلطان سعيد بن تيمور . ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم لا يزال منصب الامام شاغرا في حين اعلنت كل القبائل ولاءها للسلطان .

● العناصر القبلية في تطور الدول الحديثة :

على الرغم من ان الدولة في شرقي شبه الجزيرة العربية قد حلت محل القبيلة كوحدة سياسية اولية ، فانها لا تزال تعتمد اعتمادا قويا على

عدد من مكونات النظام القبلي . ومن أهم هذه المكونات وأكثرها وضوحاً « الاسرة الحاكمة » التي يعتبر وضعها السياسي وضعاً مطلقاً . فالاسرة الحاكمة هي التي تزود السلطة السياسية بمنصب « الحاكم » ومنصب « ولي العهد » الذي يعتبر ، بوجه عام ، نائباً للحاكم . كما يحتل عدد آخر من افرادها المناصب الوزارية ، الرئيسية بالإضافة الى تولي قيادة القوات المسلحة بغية الإبقاء على السلطة المطلقة داخل نطاق الاسرة ، هذا من ناحية ، وارضاء لطموح ذوي القرابة القريبة من ناحية أخرى ، مخافة التحريض على القيام بانقلابات سياسية ضد الاسرة . ففي عام ١٩٥٤ شغل افراد اسرة آل خليفة (في دولة البحرين) ستة مناصب وزارية في حكومة قوامها ١٣ وزيراً ، في حين استأثر افراد اسرة آل ثاني (في دولة قطر) تسعة مناصب وزارية في حكومة قوامها ١٤ وزيراً . أما في دولة الامارات العربية المتحدة فقد كان توزيع المناصب الوزارية ذا حساسية خاصة نظراً لتعدد افراد الاسر الحاكمة الواجب وضعها في الاعتبار عند تشكيل الحكومة . فقد احتل اعضاء الاسر الحاكمة المثلة للمشيخات السبعة اثني عشر منصباً وزارياً وذلك في الحكومة التي شكلت في عام ١٩٧٣ من ٢٨ وزيراً . أما الحكومة التي شكلت في عام ١٩٧٧ من ٢٣ وزيراً فقد اختصت الاسر الحاكمة بسبعة منها . (١٢) لكن اهم المناصب اسندت الى اسرتي : آل نهيان (ابو ظبي) وآل مكتوم (دبي) ، بما في ذلك منصب الرئيس ونائبيه . وفي عمان احتل اقرباء السلطان — المعروفون بالأسعيد — ثلاثة مناصب في الحكومة المشكلة من ١٧ وزيراً ، كما احتل عدد آخر من اعضاء الاسرة منصبين وزاريين اضافيين وزيادة على ذلك ، فقد كان من بين الولاة — الذين يزيدون على الثلاثين — كثير ممن ينتمون الى فروع بعيدة لاسرة آل بو سعيد ، والى جانب تركيز المناصب السياسية الكبيرة في اعضاء الاسر الحاكمة في هذه المنطقة ، فقد تمتع افرادها ايضاً بمكانة اجتماعية رفيعة نظراً لما هم عليه من ثراء نسبي واهتمام بتحصيل العلم وما حققوه خلال السنوات الاخيرة من صلات تجارية .

وتكمل هذه الصفوة من الاسر الحاكمة ، مجموعة ثانية من الصفوة قوامها رجال العشائر المشيخية بكبريات القبائل . ولقد تأكد ولاء هذه العشائر للدولة ولحاكمها عن طريق ما يخلعه عليها الحاكم من هبات ،

١٢ — الى جانب المجلس الوزاري للاتحاد ، تحتفظ معظم الدول الاعضاء بمجلسها الوزاري الخاص .

وتبادل المصاهرة مع الاسرة الحاكمة ، وتوزيع المناصب الكبرى عليهم وبخاصة مناصب الوزراء والسفراء . كما بادرت فئة من هذه الاسر الى الافادة من النشاط الاقتصادي الذي تزايد خلال العقود الاخيرة بأن اقاموا أنشطة تجارية وحصلوا على تراخيص من الحكومة لاستيراد المنتجات الاجنبية . وخير مثل على هذه الاسر اسرة عطيفة القطرية . فأحد اعضاء هذه الاسرة يشغل منصب وزير الاشغال العامة ، كما يشغل آخر منصب نائب رئيس الاركان العامة للجيش في حين يشغل آخرون عددا من المناصب الدبلوماسية . ذلك لان هذه الاسرة ترتبط مع اسرة آل ثاني الحاكمة بعدد من الزيجات ناهيك عن كونها جزءا من المجتمع التجاري القطري . وفي عدد آخر من دول المنطقة يخصص عدد من المقاعد في المجالس الاستشارية لممثلي القبائل الكبيرة والاسر التجارية . وعلى الرغم من ان هذه المؤسسات تضيف على اعضائها قدرا من المهابة ، فان امكاناتهم السياسية والدستورية لاتزال محدودة . وقد شكل ممثلو القبائل في المجلس الوطني الاستشاري (في ابو ظبي) — وهو المجلس الذي لم يدم طويلا — اغلبيية الاعضاء البالغ عددهم خمسون عضوا .

هذا ، وقد اضحى عدد من القبائل مصدرا مستديما لامداد الدولة بالجند . وشغل كثير من رجال القبائل البدوية وظائف الخفارة الليلية . أما الموقف بالنسبة لعمان فهو اكثر تعقيدا مما هو عليه في الدول التي ذكرنا ، ذلك ان تمثيل كبريات قبائل الداخل في حكومة السلطنة يرجع تاريخه الى عام ١٩٧٠ وحسب . أما فيما قبل هذا التاريخ فقد كانت اعنة السلطة كلها في قبضة السلطان باستثناء ذلك النزر اليسير الذي عهد به لفئة محدودة من الموظفين قوامها خليط من الانجليز والهنود ورجال القبائل . وتغير هذا الموقف كلية بعد عام ١٩٧٠ بأن حل محله نظام آخر اعتمد في تدبير امور الدولة على عدد اكبر من الموظفين من مختلف الطوائف والانتماءات القبلية .

● انحسار المجتمع القبلي :

ما كادت الوحدات السياسية الحديثة — جنبا الى جنب مع عملية التحول الاقتصادي الاجتماعي — تفذ الخطى على طريق التطور ، حتى اخذت القبلية في شرقي شبه الجزيرة العربية — كقوة سياسية واقتصادية واجتماعية — في السير نحو الاضمحلال . فقد كانت انماط العمل في الماضي ترتبط ارتباطا وثيقا بالقبيلة ، وتنحصر في ما تمارسه القبيلة من

اعمال وفي ما تحل به من مواقع . وقد كان تنظيم هذه الانشطة التقليدية يتم على هدى من الدورة الفصلية التي كانت تتبعها قبائل الخليج نصف المترحلة . فعندما يحل فصل الصيف ، يهجر الرجال اعمالهم الشتوية المنحصرة في الرعى وجمع الثمر في الواحات القبلية ، ويولون وجوههم شطر الساحل صيدا للاسماك وغوصا على اللؤلؤ .

وقد مال التواجد المبكر لشركات التنقيب عن النفط الى اكمال هذه الدورة الفصلية ، فقد كان يتم تجنيد العمال المؤقتين وسائقي الشاحنات والحراس من بين رجال القبيلة التي تقع في ديرتها مناطق التنقيب عن النفط . بيد ان رجال القبائل لم ينظروا الى ما اتيح لهم من فرص جديدة للعمل على انه امر مختلف — من حيث النوع — عما اعتادوا على ممارسته من اعمال اضافية في اوائل موسم صيد اللؤلؤ على الرغم مما تدره عليهم هذه الفرص الجديدة من كسب اكثر . فقد اعتبروا العمل في شركات التنقيب مجرد موسم قصير من مواسم العمل لا يعدو كونه فرصة للحصول على كسب مادي اضافي يستثمرون عائدته في شراء الحيوانات وتربيتها وشراء المزيد من النخيل . وحتى فيما بعد ، عندما سمحت اموال الامتيازات البترولية — التي كان يتلقاها الشيوخ المتهادنون — بشيء من التوسع في العمالة ، فان من نزحوا الى المدينة من رجال القبائل كانوا لا يكتفون فيها الا لفترة وجيزة لا تتعدى بضعة شهور . وقد كانوا خلال هذه الفترة يستثمرون مدخراتهم بشراء سيارة اجرة بدلا من استثمارها في شراء عدد من اشجار نخيل البلح .

اما التحول الكبير عن ممارسة الاعمال التقليدية ، فقد جاء في اعقاب اكتشاف النفط وتصديره . وقد اسفر انتشار المستوطنات النواة ، كمراكز حضرية ذات تقاليد غربية . تقوى يوما بعد اخر ، عن فرص اكثر للعمالة الدائمة . فتغير القيم كان من بين الاسباب التي حدثت برجال القبائل الى ان يؤمنوا لانفسهم اعمالا على اساس دائم لان ذلك سيعود عليهم بعدد من الميزات : كتعليم اولادهم مجانا ، والافادة من الرعاية الصحية الحديثة . وعادت الثروة النفطية بالخير الذي عم جميع قطاعات السكان من اهالي البلاد الاصليين ، وبخاصة من خلال شراء الاراضي الحكومية ، وتعليم النشء ، وتوفير الاسكان الرخيص . ونتيجة لكل هذا ، خرج كثير من رجال القبائل من الواحات الواقعة في الداخل ، متجهين الى المستوطنات النواة ، وحلت الاسرة محل القبيلة — كوحدة اجتماعية اولية . وبتوسع نطاق التعليم ، ازداد نمو الوعي لدى الناس وتفتحت عيونهم على العالم الخارجي . كما هجرت نساء القبائل الداخل القبلي للاتحاق بنوحيهن

الذكور المقيمين في المدن : وبذا اتسعت افاقهن الاجتماعية ، واتيحت لهن فرص التعليم ، ودخلن باب العمالة والنشاط الاجتماعي من خلال فرجة صغيرة فيه سمح لهن المجتمع بالمرور من خلالها .

ولعلنا نجد في قبائل الدروع مثلا على ما طرا من تغيرات بعيدة المدى على السياسة القبلية بفضل الانشطة التي كانت تمارسها شركة التنمية النفطية في عمان . وقبائل الدروع من تلك القبائل البدوية التي تحتل مضاربها مساحة شاسعة تقع بين صحراء الربع الخالي والمناطق المعصورة في اقليم الظاهرة في عمان (١٣) وشأن كل القبائل البدوية ، كان التنظيم القبلي بين قبائل الدروع ، في الماضي ، في غاية التفكك . وعلى كل ، فبعد ان بدأت شركة التنمية النفطية العمانية PDO عمليات التنقيب في مناطق الدروع في اواسط الخمسينات من هذا القرن ، بدا النسق السياسي للقبيلة يتخذ شكلا مشابها لدور البديل المحلي لنقابة عمالية . ذلك ان كل القوى العاملة المحلية في جميع فروع الشركة كان لا بد من تجنيدها من قبائل الدروع ، وتم توظيف مشايخ عشيرة **الحاميد** ، وهي العشيرة الرئيسة في هذه القبائل ، على انهم البدائل العرب « لمكاتب توريد العمال » كما تم الاستعانة بهم « كملاحظين على افراد القوى العاملة » في مواقع التنقيب منعا لتعرب غير المرخص لهم بالعمل الى هذه المواقع . وقد تمخض عما احتدم في عشيرة **الحاميد** من صراعات داخلية بين الشيوخ على العمل ان ادخلت الشركة نظاما يتناوب على اساسه ثلاثة من ابرز شيوخ العشيرة الاشراف على العمل ، وكل شيخ يتولى عملية الاشراف هذه لمدة ثلاثة شهور بالتناوب . بيد ان هذا النظام لم يثبت فعاليته ، فاصبح دور « الشيخ المناوب » ، بحلول عام ١٩٧٠ ، قاصرا على الاشراف على الاطراف النائية في حين تم شغل وظائفهم في الاماكن التي تركوها عن طريق « موظفي اللجنة الممثلة » .

كما اسهم نمو السلطة الحكومية وانتشار هيئات الخدمات بالمثل في انحسار القبلية ، وذلك بانتراع ما كان موكولا للقبائل من مهام . وشيئا فشيئا ، اخذت سلطة مختلف الشيوخ المتهادنين تزداد قوة على طريق الحكم الفردي المطلق . فما ان غدوا اقوى شيوخ الديرة ، حتى بسطوا نفوذهم على جميع القبائل وكذا على كل المقيمين بالمشيخة من غير القبليين . فقد

١٢ - اعتمدت في المناقشة الخاصة بقبائل الدروع على دراسة غير منشورة اعدها شركة تنمية النفط العمانية عام ١٩٧١ .

انشئت الدوائر الحكومية كي تنهض بالاعمال والوظائف التي كان يشغلها القادة القبليون من قبل . وانشئت دور القضاء ودونت القوانين وفقا للنظم الغربية المؤكدة للمسؤولية الفردية ، مما ادى الى تقليص دور العسرف (القانون القبلي) الذي يؤكد على المسؤولية الجماعية . وفي بادئ الامر تمثل هذا التوسع الاداري في زيادة عدد الدوائر الحكومية وعدد المستشارين الذين كانوا تابعين للحاكم مباشرة ، على الرغم مما شهدته العقد الاخير من ادخال للمؤسسات الدستورية كمجلس الوزراء والمجلسين التشريعي والاستشاري (احدهما او كليهما) في جميع دول المنطقة .

وشيئا فشيئا اضحل نفوذ الشيوخ غير المهادين . وتوقف دورهم كوسطاء بين الرعية والحاكم وبين الرعية واعضاء شيوخ القبيلة وحل محله انشاء الدوائر الحكومية ذات الصلة المباشرة بالجهامير : كالحاكم ومجالس البلديات ، والمستشفيات ، والمستوصفات ومشروعات شق الطرق ، والتنمية الزراعية ، وعلى الرغم من سمر عمان على هذا النهج ، وبخاصة بعد عام ١٩٧٠ ، نجد ان الموقف فيها مختلف نظرا لامتتع الداخل العماني بحكم ذاتي منذ زمن بعيد . فنتيجة لانفصال الساحل عن الداخل ، هيمنت السياسة القبلية على الداخل العماني حتى وقت متأخر عن سائر بلدان الخليج . وعلى كل ، فان الاحداث التي ادت الى القضاء على الامامة في الخمسينات من هذا القرن واستعادة السلطنة للداخل العماني ، هي التي استحدثت نفس قوى التحول التي اسفرت عن اضحلال النفوذ القبلي في الخليج .

وقد تم توحيد شطري عمان في نهاية عام ١٩٥٥ عندما احتلت القوات المسلحة للسلطنة كبرى مدن الداخل العماني . وتمثلت سلطة الحكومة في هذا الوقت في شخص « كبير الولاية » الذي كان يمثل السلطان في كل ما يتعلق بشؤون الشيوخ القبليين . وفي صيف عام ١٩٥٧ قام زعيم التحالف الغافري وشقيق الامام السابق — جنبا الى جنب مع الامام — بثورة مسلحة قصيرة المدى . وقد تمكنا من بسط نفوذ الامامة على معظم مدن الداخل العماني خلال فترة وجيزة ، الا ان قوات السلطنة بدعم من البريطانيين ما لبثت ان قضت على هذه الثورة ففر الثوار الى اعالي الجبل الاخضر حيث تعقبتهم قوات السلطنة الى ان تركوا عمان نهائيا في اوائل عام ١٩٥٩ .

وقد اسفر اخماد هذا العصيان والقضاء عليه عن ممارسة السلطان لسلطته السياسية ، على كل قبائل الداخل العماني ، ممارسة مباشرة من خلال ولاته الذين نصبهم على كبريات المدن . واستثنى من تلك القبائل

من ظل شيوخها على ولائهم للسلطان ولم يشتركوا في الثورة ضده . أما قبيلة بني ريام ، وهي أهم القبائل التي تورطت في هذه الثورة ، فقد منيبت مستوطناتها الرئيسية بالدمار الشامل ، ونصب على قراها الواقعة داخل الجبال حاكم عسكري ، واعيد تنظيم قوة المجندين التي كان يعوزها التدريب والتزود بالسلاح ، وهي القوة التي تشكل جيش السلطان ، وتسمت فيما بعد بقوات السلطان المسلحة SAF . وقد تم لها ذلك تحت اشراف احد القواد الذي تم انتدابه من الجيش البريطاني ، كما اقيمت المعسكرات في مداخل المواقع الرئيسية في الداخل العماني . واضطلع الجيش الجديد بمسؤولية جباية الضرائب من المقيمين في هذه المنطقة ، وذلك لأول مرة منذ ما يقرب من نصف قرن . كما ان هناك دلالة اخرى على تزايد نفوذ السلطان الا وهي قدرته على اصدار الاوامر لشيوخ الداخل ، واجبارهم على اطاعتها دون اخذ او رد .

اما القبائل الوحيدة التي تمتعت بقدر من الحكم الذاتي فهي التي اعلن زعمائها الولاء للسلطان قبل نشوب الثورة واثناءها وبعدها خلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٥٩ . ومن ابرز هؤلاء الزعماء احمد بن محمد الحارثي . ويحسن بناء ان نعرض لسيرة هذا الزعيم بشيء من التفصيل لان توليه الزعامة وانتزاعها منه يعد شاهدا على تحول السياسة القبلية في عمان خلال الاعوام الثلاثين الماضية ، كما يعد شاهدا على ما حل ببنية السلطة القبلية من تصدع عبر انحاء شرقي شبه الجزيرة العربية . فعند تولي جده الاكبر ثم جده من بعده امرة قبيلة الحرث ، غدت هذه القبيلة اهم قبائل التحالف الهناوي ، وغدا التمايم الحارثيون اهم وجهاء القبائل في البلاد . . وعندما أصبح ابوه تيممة للقبيلة في عام ١٩٤٦ ، تمخضت قيادته الضعيفة — بالاضافة الى ما لازمه من مرض طيلة مدة قيادته — عن فقدان القبيلة هيبتها ومكانتها بين قبائل التحالف . ثم اسفرت وفاته بعد توليه الزعامة بعامين عن صراع على الخلافة بين احمد وعمه زعيم قبيلة الحرث : صالح بن عيسى . ولما كانت نتيجة الصراع لصالح العم فقد توجه احمد الى السلطان يقدم له التأييد والولاء كي يناصره على عمه .

وقد خضع هذا التأييد للاختبار بعد ذلك بعدة سنوات عندما انضم عمه صالح الى قوات الامامة — التي لم تعمر طويلا (١٩٥٤ — ١٩٥٥) — وترك صالح البلاد بعدها لاجئا الى مصر ، وقد كان للولاء الذي اظهره احمد للسلطان في ذلك الوقت اثره ، اذ عينه السلطان واليا على نزوى ،

وهي اهم مدن الداخل العماني . ثم ما كان من احمد الا ان عبر عن هذا الولاء على نحو عملي ابان نشوب الثورة عام ١٩٥٧ الامر الذي كان له اثره في منحه سلطة مطلقة على المنطقة الشرقية التي تقيم فيها قبيلة الحرث ، بالإضافة الى ما كان له من سطوة على القسط الاكبر من الداخل العماني . ونتيجة لهذه العلاقة التي وثقها مع السلطان ، وان كان فيها مجرد تابع له ، تمكن احمد من بسط سلطته على الداخل العماني على نحو لم يسبق لهذه المنطقة ان عرفت له مثيلا منذ منتصف القرن الثامن عشر . ولقد كان ما توصل اليه احمد من انجاز يعد امرا مستغربا في هذه الفترة ، خاصة وان السلطة القيادية لبقية زعماء القبائل في شرقي شبه الجزيرة كانت اخذة في الانحسار .

ومع هذا ، فلم يكن احمد براغب ولا بقادر على ان يتفهم ما طرا على السلطة السياسية من تحول جذري في اعقاب انقلاب عام ١٩٧٠ فالنظام الجديد لم يعتمد في توطيد اركانه على تأييد وجهاء القبائل او اظهار ولائهم . (لكنه اعتمد على امور اخرى) ، فقد انفق تقريبا كل ارصدة عوائد النفط المكسبة منذ سنوات دون ان تستثمر فيما يعود على الشعب بالفائدة — على تنمية المشاريع الاقتصادية — مع العلم بان قدرا كبيرا من هذه الارصدة قد انفق على مواجهة حرب العصابات في ظفار ، كما قام النظام الجديد بتوسيع رقعة المشاركة في الحكومة على نحو ملحوظ . اما النظام القديم الذي سار عليه السلطان المعزول ، والذي كان من خلاله يدير دفعة الحكم بمفرده مع اسناد قدر بسيط من السلطة لقلّة من خلصائه غير الكفاء ، فقد انقلب راسا على عقب بمجىء النظام الجديد في عام ١٩٧٠ وما اعقبه من توسع فني الجهاز الحكومي ، ورحابة في المفهوم السياسي للدولة . وقد تم اسناد الوظائف القيادية لرجال الاسر التجارية وللعمانيين المعاندين من المنفى والى كثيرين من ممثلي مختلف الاقليات .

لم يعد التنظيم القبلي والتحالفات القبلية بالعامل الاساسي المؤثر في السياسة القوية العمانية . فعلى الرغم من تخصيص منصبين وزاريين لممثلين عن قبائل الداخل العماني ، فقد تم الاستغناء عن الشيوخ بمجرد وصول الخدمات الحكومية الى الناس مباشرة ، كما تم تكليف الافراد للعمل في الحكومة على اساس الكفاية الشخصية لا على اساس الانتماء القبلي . اما البقية الباقية من تهايم القبائل فقد اضطروا للقبول بسيادة الحكومة وتصريفها لكل امور البلاد ، واقتصر ما تبقى لهم من سلطة على تصريف

الشؤون الداخلية للقبيلة ولا أكثر . وعندما رفض احمد بن محمد الحارثي الاعتراف بسيادة السلطان الكاملة ، تم وضعه تحت الإقامة الجبرية في منزله بمسقط حيث بقى هنالك حتى عام ١٩٧٦ (١٤) .

وبأفول سلطة احمد بن محمد الحارثي ، سقطت اخر واهم ركيزة من ركائز الحكم الذاتي القبلي في شرقي شبه الجزيرة العربية ، ومنذ ذلك الحين، فان القبائل الوحيدة التي استطاعت ان تسير امورها الداخلية على نحو مستقل نسبيا عن الاشراف الحكومي ، لا تشكل سوى عدد محدود من القبائل ذات الطابع البدوي الخالص والتي تسكن المناطق الصحراوية . وحتى في هذه المناطق ، ظهر تأثير النفط على نحو تغيرت معه الحياة اليومية لهذه القبائل ، كما ظهر في جذب المستوطنات الساحلية لرجالها . ومن هنا يتضح ان القبيلة — كعامل من العوامل المؤثرة في الحياة السياسية لدول شرقي شبه الجزيرة العربية — قد انحسرت اهميتها . كما ان موارد الثروة المتزايدة والمتاحة لحكام المنطقة قد مكنت هؤلاء الحكام من بسط نفوذهم وسلطتهم السياسية على نحو لم يسبق له مثيل . اما العشائر المشيخية فلم تكن بقادرة على ان تحتفظ بما لها من نفوذ الا من خلال انخراطها في أنشطة بعيدة عن ممارسة العمل السياسي : كالاشتغال بالتجارة والعقارات اما السير على درب الرخاء الاقتصادي بالنسبة لرجل القبيلة فقد تطلب اعتمادا اقل عن ذي قبل على الصلات القبيلة ومزيذا من الاعتماد على غير ذلك من معايير .

وتعد الاسر الحاكمة الاسر الوحيدة التي واصلت اداء ما اضطلعت به من دور سياسي مركزي مهم . ومع هذا ، فان التوجيه القبلي لسياسة هذه الاسر قد يذوي بتحولها الى اسر حاكمة او توقراطية . وعلى الرغم من ان هنالك عناصر متطرفة قد سعت الى استدراج عدد من العناصر القبلية لتأليبها على نظم الحكم الحالية ، فان اية حركة ضاغطة تبغي الحصول على مشاركة سياسية ارحب لا تصدر عن مثل هذه العناصر وانما قد تصدر عن عناصر المجتمع المنخرطة في أنشطة اجتماعية منظمة : كالجماعات المهنية

والنوادي الاجتماعية والنقابات العمالية (١٥) . وعلى هذا ، فان مكانة الاسرة الحاكمة ستظل ، دون شك ، آخذة في القوة حتى فترة طويلة مقبلة ، خاصة انها تشكل حلقة مهمة في تحول المنطقة من مجتمعات قبلية الى دول حديثة .

١٥ - يقتصر التطور الاجتماعي الملازم لظهور هذه الجماعات - الى حد كبير - على دولة البحرين ، بسبب ظهور مردود النفط فيها قبل غيرها من دول الخليج الاخرى . ومع هذا ، فان الاسرة الحاكمة كانت مترددة في اشراك هذه الجماعات في السلطة ، كما ظهر في احداث اغسطس ١٩٧٥ عندما اعلنت الحكومة حل مجلس الامة الى اجل غير مسمى ، انظر اميل نخلة في كتابه : البحرين .

المطبعة العصرية ومكتباتها - الكويت

الطبعة الثانية - ١٩٨٢